نوح عليه السلام

المدة الزمنية بين آدم عليه السلام ونوح عليه السلام

المدة التي كانت بين سيدنا آدم وسيدنا نوح عشرة قرون، والدليل حديث الرسول ﷺ: سئل الرسول ﷺ مرة: هل آدم نبياً؟ قال: «**نعم نبي مكلَّم**»، فقيل له: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرة قرون**»[1].

فهل المقصود بالقرن هنا: المئة سنة؟ أو يعني: الجيل؟ إنما هو الجيل؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**خير القرون قرني**»[2]، أي: خير الأجيال جيلي.

لذا لو كان المقصود بالقرن هو الجيل، فسيكون مجاله أكثر من ألف سنة، خاصة أن أهل ذلك الزمان كانوا من المعمرين.

كان الفرد منهم يعيش خمس مائة سنة وسبع مائة سنة، وهكذا دواليك، فالجيل هنا إذن هو أكثر من ألف سنة.

وما المهم في هذه الحِسبة هنا؟ في رواية للبخاري: أنه كان

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 178).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2302).

بين آدم عليه السلام ونوح عليه السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام، أي: أن بداية الأرض كلها عبودية لله.

فما الحاصل الآن؟

كلما زاد المال في الأرض وكلما زادت التكنولوجيا، يتكبر الناس على خالقهم... بدل من أن تكون المعادلة: كلما زاد المال والعلم والتكنولوجيا، زادت المعرفة والإيمان بالله أكثر؟ فتخيل حوالي ثمانية آلاف أو عشرة آلاف سنة، كلها على الإيمان والطاعة لله! عبودية وصلاة وإصلاح في الأرض ووعي بأمور الخلافة في الأرض.

فما الذي حصل حتى يتكبَّر الخلق على الله سبحانه وتعالى؟

أرجوك أخي المسلم، مهما كنت غنياً، مهما كنت عالماً، مهما كان مركزك في الأرض، تواضع وتذلل لله سبحانه وتعالى. وهنا لا بد من لفت نظركم إلى هذه الملحوظة بالنسبة للإيمان بالله الذي كان سائداً يومذاك، أنه لم يكن في عصر نوح هذا العدد من الأنبياء الذي عهدناه في عصورٍ أخرى. فلماذا كثرة الأنبياء والرسل إذا كان الناس عارفين بالله وطائعين له؟ لذلك ترى بني إسرائيل قد أرسل إليهم العديد والعديد من الرسل والأنبياء حتى يؤمنوا ويرجعوا إلى الله، ولكن أبَوا إلا الكفر والعصيان والتكبر على الله ﷻ، بينما أمة محمد ﷺ لها نبي واحد يكفيها ليوم القيامة، انظر إلى هذه المعاني التي تجلت لنا من دراسة هذه الحسبة وأخذها بالحسبان،

ومن أجل ذلك لم يكن بين آدم ونوح سوى إدريس عليه السلام ؛ لأن الأرض كانت كلها طائعة لله ﷻ يومذاك.

ونحن اليوم لدينا مشاكل كثيرة، فلماذا بُعِث لهذه الأمة نبي واحد؟

ذلك لأن أمة محمد ﷺ لديها خصوصية عن باقي الأمم، فما هي هذه الخصوصية؟ هذه الخصوصية هي أن الأمة كلها مكلفة بالذي كُلِّفَ به محمد ﷺ.

كأن الله ﷻ يقول لنا: مات نبيكم العظيم، وأصبح الآن دوركم أن تقلدوا نهج نبيكم وتنشروا الدين كما نشره، فهذه ليست مهمة الأزهر فقط، ولا مهمة الشيوخ فقط، بل مهمتنا جميعاً، كأننا حلَلْنا مكان الأنبياء لننشر هذا الدين العظيم في كل بقاع الأرض، هذا كان مراد الله ﷻ، ومن أجل ذلك كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

أمة محمد كلها مسؤولة عن الإسلام وعمارة الأرض...

تخيَّل أخي المسلم التقصير الذي أنت فيه الآن!

التقصير الأول: قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

التقصير الثاني: أنتم مسؤولون عن هذا الدين إلى يوم القيامة، فأنت خُلِقت لأجل هاتين المهمتين:

عمارة الأرض، ونشر الدين، فأين أنت من هذا؟ فلا تقل: لا أملك معلومات.

سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ، عندما أصبح من العشرة المبشرين بالجنة، هل كان لديه معلومات؟ كان له روح وغيرة وحب للإسلام، كان لديه شعور بالمسؤولية تجاه هذا الدين، هذا تشريف قبل أن يكون تكليفاً.

والمعنى الذي نريده هو أن أمة محمد كلها مسؤولة عن الإسلام، وهي المسؤولة عن الأرض.

يا إخوتي، نحن مسؤولون عن هذا الدين، ليس لنا إلا نبي واحد لماذا؟ لأننا مسؤولون من بعده، فهذه مهمتي، ومهمتك ومهمة الجميع، أرجوك اسمع واعقل معي هذا الكلام.

فهل عرفتم الآن معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: 110].

فانظر كيف وضع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان بالله! لماذا؟

ذلك لأنك حين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر يزيد إيمانك... أي كلما تصلح أنت، كلما يزيد إيمانك.

فإذا انتظرت وقلت: عندما يكتمل إيماني سوف أصلح وأعمر، ستموت وإيمانك لم يكتمل.

أو أن تأتي يوماً وتقول: إيماني اكتمل الآن، حينها ستصاب بالغرور ولن تعد صالحاً لهذه المهمة، التي لا يصلح لها المغرورون.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فلمَّا أنسانا الشيطان هذه المهمة ضعنا وخَربت الأرض.

فأنت مسؤول في مدرستك، في جامعتك، في مَشتَلِك، أنت مسؤول تجاه كل الناس، تجاه أقاربك، جيرانك أصحابك.

قصة سيدنا نوح تحثّنا على الدعوة لله، لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**بلّغوا عني ولو آية**»[1]، ولذلك كان عقب كل خطبة يقول: «**فليُعلم الحاضر منكم الغائب**».

وكذلك قال: «**نضَّر الله وجه امرىءٍ سمعها فوعاها فأدَّاها كما سمعها**»[2]، حبِّب جميع الناس بدينك، لا تقل: لا أجيد الكلام، أو أخجل، أعطهم شريطاً، افعل أي شيء فليس لك حجة مهما قلت ودافعت عن نفسك، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: 108]، فهل أنت متبع أم لا؟ فهل اتضح لك لماذا لم يرسل نبي بعد محمد ﷺ؟ لأنك أنت المكلف من بعده.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3461)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2669)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 159)، وأخرجه **الدارمي** في (الحديث: 1/ 136).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2658).

لابن القيم كلمة جميلة في هذا المقام: اعلم أن مقام الدعوة إلى الله وإصلاح الأرض أعلى مقامات العبودية لله؛ لأنه مقام محمد ﷺ.

ما الذي أدى إلى بعثة نوح عليه السلام؟

عاش سيدنا نوح عليه السلام، عشرة قرون والأرض كلها في صلاح وثبات فما الذي أدى إلى بعثة نوح عليه السلام؟

فالرسول يُبعَث بعد أن ينتشر الفساد في الأرض، لماذا؟ حتى يمهل الله العباد أولاً، وحتى ينظر أيخرج منهم المصلحون أم لا؟ فيأخذون الثواب ويؤجل الله الأنبياء لمن يحتاجهم أكثر.

والقصة التي أدت إلى بعثة الرسول هنا، هي قصة الشيطان أتذكرون قول الشيطان لله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: 82]، و﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 62]، مما يعني أن إبليس كان جادًا في دعوته، أفلا يكون عيباً علينا ألا نكون صادقين في دعوتنا؟

ويبدأ الشيطان يرقُب الجدية والصلاح في الأرض، فهو يريد أن ينفذ ما توعَّد به المصلحون.

قبل أن يُبعث سيدنا نوح عليه السلام كان قبله خمسة مصلحين وهم: وُدّاً، سُواعاً، يغوث، يعوق، نسراً، لم يستطع الشيطان أن يقرب منهم، فهو لا يستطيع الاقتراب من المصلحين، بل ظل يرقب ويتحيّن الفرص ليفسد في الأرض.

فمن أجل ذلك قال الرسول ﷺ: **«يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدّد لها أمر دينها»**[1]، لا يوجد أنبياء لأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، بل مصلحون يشتغلون بأمر دينهم أينما وُجِدوا وأينما حلوا.

وظل الشيطان يرقُب وقتها حتى مات أولئك الخمسة، فلما ماتوا، لم يظهر غيرهم، كما خصَّ الله أمة محمد بمصلحين كل مئة عام.

فاعتبر الشيطان أن هذه فرصةً له، فأخذ يقنع الناس أن المصلحين العظماء قد ماتوا وطُويت صفحتهم، فوجب عليكم أن تذهبوا وتزوروا قبورهم كل أسبوع، فنفذوا أمره.

بعدها قال: إني أخشى أن ينسى الناس دين هؤلاء الخمسة فاصنعوا لهم تماثيل؛ لأنكم أنتم من رأى شكلهم، فصنعوا، وتركهم على هذه الخطوة حوالي ستين أو سبعين سنة، وهو راضٍ عن هذه الخطوة، حتى مات من صنع هذه التماثيل.

وجاء بعدهم جيلٌ آخر، فجاء إبليس للشباب وقال: إن آباءكم الذين صنعوا هذه التماثيل من قبلكم، إنما صنعوها من أجل أن تعبدوها من بعدهم، فدخل الكفر والشرك إلى الأرض.

إن همّ الشيطان الأكبر أن يوسوس للعباد ويزين لهم قبيح

---

(1) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4291).

الأعمال، فتراه يوسوس لك بشرب الدخان الذي يؤدي أحياناً عند الشباب لتعاطي المخدرات، ويقول للفتاة: اشربي (النرجيلة)، وبعد ذلك تعاطيها في الشارع فإن ذلك ليس عيباً، حتى يؤدي بك إلى نبذ الحياء بعد ذلك، وهذا مما لا مجال للشك فيه، ويأتي للمتدينين بطريقة تختلف عن الطريقة التي اتبعها مع قوم نوح، وهو يعلم أن الإصلاح إذا عم الأرض، فالخير سيعمُّها أيضاً.

فيأتي للمتديِّن ويقول له: تفرَّغ للعبادة، لم يعد هناك أي جدوى من الناس، أنت عليك بنفسك، ودع هموم الناس للناس يحلُّوها بأنفسهم واعمل أنت لآخرتك فقط، يا مسكين، ألم نتلو عليك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبيَّنا لك معنى الخلافة في الأرض ومعنى قمة العبودية لله تبارك وتعالى؟

تنَازَل عن الإصلاح في الأرض...

أترضى أن يكون حالك كما فعل إبليس مع عابد بني إسرائيل، إذ ذهب إليه وقال له: ليس هناك من فائدة في هذه الأرض، فاذهب وتفرغ لعبادة الله ﷻ، فرضي، فانحل الشيطان عن الوسوسة له مدة عشر سنين.

بعد عشر سنين، ذهب لثلاثة إخوة يريدون السفر، وقال لهم: دعوا أختكم في المكان المهجور قرب ذاك العابد ولا تدعوها في وسط البلاد، فعرضوا ذلك عليه مراراً حتى قبل، فوسوس له الشيطان: أن أطعمها الطعام واسأل عنها مراراً، حتى وقع بينهما الزنا، فحملت الفتاة، وخافت من الفضيحة بعد أن أتى إخوتها من

سفرهم، فقتلها العابد وقتل معها الولد.

فأتى إخوتها يسألون عنها فقال: ماتت، ففتحوا القبر، فوجدوها وابنها في القبر فعلَّقوه وأرادوا قتله، بعد ذلك أتى الشيطان وقال للعابد: أنا من وسوس لك هذا وأنت رضيت، اسجد لي وأنجيك من هؤلاء الثلاثة، فكيف بدأت المعصية؟ بالعكوف على العبادة فقط، وكيف انتهت؟ انتهت بالزنا والعياذ بالله، فسجد للشيطان، وهو ساجد قُبِضَت روحه أعاذنا الله.

فالبداية كانت بأن تنازَل عن الإصلاح في الأرض، وأنا أعرف الكثير والكثير من الشبان الذين كانوا متدينين والآن ضاعوا في متاهة الأرض لماذا؟ لأن بدايتهم كانت في التفرغ للعبادة فقط.

إذن رأينا كيف أن المصلحين الخمسة ماتوا وذلك قبل بعثة سيدنا نوح، فتاهت الأرض، ووصلت لقمة طغيانها، فبُعِث نوح عليه السلام، وظل يدعو الناس ألف سنة.

كم يبلغ عمر سيدنا نوح؟

كم يبلغ عمر سيدنا نوح؟ ألف سنة؟ خطأ.

فإن عمره يُقسَّم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة ما بين الميلاد والبعثة. وقيل: إنها خمسون سنة.

المرحلة الثانية: مدة البعثة، وهي تسعمائة وخمسون سنة.

المرحلة الثالثة: مدة ما بعد البعثة وفترة الطوفان، وفترة استقرار الأرض حتى مات عليه السلام.

والنتيجة أن سيدنا نوح مات عن عمر أكثر من ألف سنة حتماً، وبالتالي، فهو أطول الأنبياء عمراً، حتى أطول عمراً من سيدنا آدم عليه السلام، ومدة دعوة قومه تسعمئة وخمسون سنة، فلماذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، ذلك لأن دعوته كانت تحمل تسعمئة وخمسين سنة من الشقاء، وخمسين عاماً من السعادة والهناء، فكأن لفظ سنة كان عند العرب يحمل معه العناء والشقاء، وعام يحمل معه معنى السعادة والراحة. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]، وأكثر التفاسير قالت: ثمانون رجلاً.

انظر قول الله تبارك وتعالى في قصة «يوسف»: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47]، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]، الله! هذا المعنى الذي يتراءى لنا من قصة نوح، معنى الصبر، تخيل أن يؤمن لنبي كل خمسة عشر سنة تقريباً شخص واحد.

سيدنا نوح حقق قمة العبودية، عندما أصلح في الأرض وصبر ألف سنة وقال: أجري عند الله، والصبر عبادة من أحب العبادات إلى الله.

من أجل ذلك، ذكرت قصة نوح في القرآن ما يزيد عن اثنين وخمسين مرَّة في ثمانية وعشرين سورة، منها سورة سميت باسمه

وهي: سورة «نوح»، وكلها سور مكية أو أغلبها لماذا؟ لأن جميع الصحابة في مكة كانوا محتاجين للصبر أمام تكذيب قريش، وَ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

فماذا فعل قوم نوح بنوح عليه السلام؟ كانوا يضربونه ضرباً مبرحاً حتى يُغشى عليه فيضعونه في الحصير ويلقونه ويقولون: سيموت، فيعود إليهم في الصباح الباكر ويدعوهم إلى الله تبارك وتعالى.

وصفوه بالسفيه، وبأنه ضلّ ضلالاً شديداً: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: 60، 61]، وقالوا: مجنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: 25]، وقالوا: كاذب ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر: 54]، وسخروا منه مرات عديدة: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: 38]، استهزاء وغمز ولمز، وهدَّدوه بالقتل أيضاً: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: 116].

يا أخوتي، ادعوا الناس، وخذوا بأيديهم، اشعروا بالمسؤولية التي وُجِّهت اليكم في الأرض، يا أخي، ضحِّ بمالك، ضح بجاهك، ضح برزقك، ضح بعمرك، تعلموا من الصحابة الذين قدموا أرواحهم ليعيش هذا الدين من بعدهم، ضحوا من أجل أن تعيش وتنعم أنت، فنالوا تلك المنزلة، فلماذا لا تضحي أنت حتى ينعم من بعدك ويكن لك منزلة رفيعة عند الله في الآخرة.

فانظر مثلاً لخباب بن الأرتّ، كانوا يضعونه على الجمر، فلا يطفِئه إلا شحم ظهره، القليل من التضحية من أجل الإسلام يا إخوتي.

ويأتي سيدنا أبو بكر فيجد المشركين حول النبي ﷺ، فيدفع هذا، ويدفع ذاك ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!

فيتركون النبي ﷺ ويأخذون أبا بكر مكانه، فيضعونه أرضاً ويأتي عقبة بن أبي معيط ويضربه بنعله على وجهه حتى ينتفخ من الضرب، وعندما يصحو يقول: ما فُعِل برسول الله؟

وكان قوم من المشركين يترقَّب مسيرة الرسول ﷺ حول الكعبة، فيأتون ويلقون التراب عليه، حتى يمتلىء صدره تراباً، وغير ذلك كثير.

وغيروا اسمه من محمد إلى مذمَّم، فبدأوا يقولون: أتى مذمَّم وذهب مذمَّم، فيضيق صدر الصحابة لهذا، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: **«دعوهم فإنهم يشتمون مذمماً وأنا محمداً»**[1].

فتحركوا لهذا الإسلام... لهذا الدين العظيم، كما يتحرك أحدكم لابنه وهو في مرضه الشديد، فينفق كل ما يملك من أجل شفائه.

انظر إلى (نيلسون مانديلا)، رقد في السجن ستة وعشرين سنة من أجل حقوق السود؛ لأنه يؤمن بقضيته.

---

(1) أخرجه النسائي في (الحديث: 3438)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 244).

فما بالك وأنت تحمل قضية إصلاح الأرض؟!

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 5 ـ 9]، ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح: 21 ـ 23]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾ [نوح: 28]، انظر التنظيم حتى في الدعوة، طلب المغفرة لنفسه، بعدها لوالديه، وبعدها لأهل بيته، وبعدها وسّع الدائرة ودعا لجميع المؤمنين والمؤمنات.

نسرة نوح هذه جهة علينا جميعاً، جهة علينا في الصبر، جهة علينا في العمل، جهة علينا في الإصلاح.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ افهموا جيداً، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] وعُوا هذا الكلام حتى تدركوا مسؤوليتكم في الحياة.

إخوتي لا تابهوا لسخرية الآخرين...

لقد تعرض سيدنا نوح للأذى بشتّى أنواعه، للسخرية للعذاب، لكنّه أبى إلا أن يكون ممن يعمّر هذه الأرض بإيمانه ودعوته إلى الله، لماذا؟ لأنه خليفة، أو لأنه وعى دوره في خلافة الأرض.

لو تعجبت واستهزأ بك أصحابك، لا تسمعي ولا تابهي لهم.

لو التزمت أيها الشاب لا تابه لسخرية من حولك، سيدنا نوح تعرض لمثل ذلك بل أشد، لكنه وعى بأنه خليفة لهذه الأرض، فأدِّ دورك كما أداه نوح عليه السلام وجميع الأنبياء من بعده.

فتصور بعد هذه السخرية وهذا العذاب... قوله بدون يأس، بل بكل رضى، رضى بالدعوة التي أرسل من أجلها، لا بالنتيجة التي وصل إليها، رضى بخلافة الله على الأرض: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ [نوح: 5]، دون يأس أو ملل، ودون تردد. وأخيراً: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، لكن المهم أنه أدى دوره بكل جدارة وكل صبر، أتصبر على صديقك ثلاثة أشهر تدعوه ثم يتولى عنك؟ أتصبرين على أذى جارتك وأنت تنصحيها وتعظيها لتصلح حالها وهي تسخر منك وتستهزىء بك؟ كم ستتحملين؟ شهر، اثنان، سنة، عشرة، كم؟ نوح عليه السلام تحمل تسعمئة وخمسين سنة، تخيلي!

وآخر محصِّلة دعوته ثمانون شخصاً هل أنتم متصورون معي هذه المفارقة العجيبة؟ تسعمئة وخمسون سنة، مقابل ثمانون شخصاً فقط، والأمر العجيب الذي يجب إدراكه أن نوح عليه السلام لم يكن معه معجزات أثناء فترة دعوته؛ لأن الطوفان كان في نهاية الأمر وقت الهلاك، لماذا؟ حتى يكون قدوة لكل مصلح فينا اليوم، حتى لا تضع المعجزة حجة لك، بل قدَّر الله أن يكون سيدنا نوح قدوة لكل واحد منا، ندعو إلى الله، حتى ولو كنا لا نملك معجزات ظاهرة كالأنبياء من بعده.

لنترجم خلافة الأرض إلى الحس العملي

ما رأيك أن تقول: سآخذ بيد واحد من أصحابي هذه السنة، وأظل أتابع معه حتى يهتدي؟ لا تقل: أنا ضعيف أو لا أملك القدرة، بل أنت تملك كل شي، تملك العقل، والبصيرة، والدين ميسر بين يديك، قم بهذه الخطوة، والله سيفتح عليك.

إذا شعرت أنك لا تملك وسيلة للإقناع بالكلام، أعطه شرائط كاسيت، أعطه كتاباً، انصحه، ادعُ إلى الله ولو بكلمة واحدة، اشعر بأنك مسؤول عن الدين تماماً كما الأنبياء أدركوا هذا الأمر: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، وقال الرسول ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس»**. وفي رواية: **«خير لك من حمر النِعم»**[1]، وهي النوق، أكرم الدواب.

كأن يُقال اليوم مثلاً: خير لك من أجمل سيارة تملكها حتى ولو كانت آخر موديل. وانظر الحديث الذي يقول: **«من دعا إلى الخير فله مثل أجر من عمل به إلى يوم القيامة لا ينقص من أجره شيء»**[2].

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3009)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6173).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 6745)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 4609)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2674)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 397).

فتخيل لو أنك هديت شخصاً للإيمان، ستجد ثواب ذلك في ميزان حسناتك يوم القيامة ولو هدى هو الآخر شخصاً، تجده أيضاً في ميزان حسناتك، فعلاً ما أجمل هذا الدين العظيم.

فتخيل أن كل الصلوات في مساجد بلاد الشام مثلاً في ميزان أبو عبيدة بن الجراح أو عمرو بن العاص ﷺ، شيء مذهل فعلاً.

يا اخوتي، هناك أناس في عقولهم قناعة عن الإسلام، وأناس آخرون لديهم انتماء للإسلام.

وأغلب المسلمين لديهم قناعة بالإسلام، لكن الانتماء الى الإسلام هو أن تطبق كل ما يطلب اليك تنفيذه... اي ان تكون فعلاً خليفة.

من أجل ذلك أتى قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]، فكلما أخذتم بأيدي الناس سيزيد إيمانكم، يقول أحد التابعين: إنني كلما دعوت شخصاً فيستجيب شبعت نفسي وارتوت، وصار لا حاجة لي بطعام ولا شراب، هل تستطيع أن تكون كذلك؟

تخيل نفسك يوم القيامة مثلاً وراء سيدنا نوح، وتقول: يا رب دعوت فلان للإيمان بك، فاستجاب، تخيل الثواب! وحبُ الله لك في هذه اللحظة، وإحاطته لك في هذه الدنيا.

الأمة تصاح للرجال وللنساء، هذه الأمة العظيمة تصاح اليوم لرجال صالحين ونساء صالحات، بل مصلحين ومصلحات، يصلون الدين على ظهورهم، ويبلغوا رسالة ربهم في هذه الحياة الدنيا.

أربعة أمور أساسية للدعوة وكسب الفلاح...

إن الله سبحانه وتعالى وضع أربعة أمور أساسية للدعوة إليه، وردت في سورة «نوح»، لو أجدتها أجدت الدعوة إلى الله وهي:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: 10]، أي: ركز على الترغيب في رحمة الله ﷻ، وإياك وأن تنفِّر الناس من هذا الدين أو تدعو إلى التقنيط من رحمة الله وغفرانه.

2 ـ قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: 11]، تخيل صحراء ومطر! ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 12]، أي: عدهم بما لهم في الدنيا والآخرة معاً، من جراء الاستجابة لدعوة الله ﷻ، لا تقل جنة ونار فقط، بل عدهم بالسعادة الدنيوية أيضاً كما فعل نوح مع قومه، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 12]، أدخل دائماً المكاسب الدنيوية بجانب المكاسب الأخروية هذا هو الحال، الناس يريدون مكاسب.

3 ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: 15]، أي: تدعوهم للنظر في ملكوت الله، تريهم قدرة الله وبدائعه في الكون.

ادعهم لقراءة القرآن والتفكّر في معانيه، قم معهم برحلة لرؤية الجبال والبحار والسماء والتأمل في قدرة الخالق ﷻ.

4 ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 18]، أي: ذكّرهم بحقيقة العودة إلى الله بعد أن يأخذ الأمانة. فهذه أربع نقاط أساسية في الدعوة إلى الله، لو أجدتها تكون ملكت سعادة الدنيا والآخرة بين يديك. تخيل مثلاً لو أتى العام المقبل فملِئت المساجد بالمصلين لدرجة أننا نحتاج لبناء مساجد أخرى، كيف سيكون وضع الأرض حينها؟ طبعاً أفضل بكثير مما نحن عليه الآن.

نتيجة دعوة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، فماذا يقول لهم بكل إيمان؟ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13]، قلبه يعتصر ألماً، لأن ما باليد حيلة، فهل الأرض اليوم موقرة لله؟ هل الغالب على الأرض هو الوقار لله ﷻ؟ أم العكس؟ أجب أنت.. فلماذا لا تبدأ بنفسك؟

انظر قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ [المدثر: 1 ـ 3]، ليس أن تقول: «الله أكبر»، بل بأن تُعلي شأن هذه الكلمة في قلوب من تدعوهم إلى الله، أن تكبِّر اسمه في أفعالك لا في أقوالك، كبّر اسم الله في الأرض قدر استطاعتك، فأنت عليك أن تدعو إلى الله، لا أن تحصي عدد الذين آمنوا، بل لك أن تدعو.. ادعُ إلى الله.

لو أعطاك أرضاً ازرعها، لا عليك أنتجت أو لم تنتج،

ازرعها فقط وخذ الثواب من الذي وعدك به على انتاجك فقط.

انظر ماذا يقول رب العزة للرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه العزيز: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: 128]، ليس لك بالنتائج شيء، المهم أن تزرع، واترك النتائج لله ﷻ القادر على كل شيء، حتى سيدنا محمد ﷺ، ظل في مكة يدعو أهلها وآخر الأمر آمن معه سبعون فقط، ليس لك بالنتائج بل اتركها لله ﷻ، هو يقدّر ويفعل ما يشاء.

دعوة نوح على قومه

بعد ذلك دعا نوح على قومه بالتهلكة، لكن متى؟ وهل يجوز أن يدعو النبي على قومه؟

الجواب أنه ما دعا عليهم إلا بعد أن نزل وحي من الله يخبره أنه لن يؤمن له من الناس أحد بعد إلا من قد آمن.

حينها دعا عليهم، بعد أن أيقن بالهلاك المحتم لهم، فدعا: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: 26، 27]، انظر وع، حتى الدعوة لم تكن لنفسه، بل كانت من أجل الثمانين الذين آمنوا معه، خاف عليهم أن يبقى أحد من الكافرين يضلهم ويبعدهم عن الحق.

هل تستطيع ان تحب الناس هكذا؟ هل تستطيع ان

تدعو بإخلاص كما فعل نوح عليه السلام؟ شخصية المصلح تتمثل بحب الخير لكل الناس.

بعث الرسول ﷺ الطفيل بن عمير وقال له: «**يا طُفيل، ادع قومك**»، فدعاهم ثلاث سنين، لم يؤمن منهم إلا رجل واحد وهو: أبو هريرة رضي الله عنه، فرجع إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، كفرت دوس وعاندت وتكبرت ولم يؤمن إلا هذا الرجل، فرفع النبي يديه إلى السماء، يقول الطفيل: فوضعت يدي على رأسي وقلت: سيدعو النبي على قومي، فقال النبيّ: «**اللهم اهد دوساً وائتِ بهم، اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم، قم يا طفيل ولا تعد إلا ومعك قومك**»[1]، فرجع الطفيل يهدي قومه عشر سنوات حتى هاجر النبي إلى المدينة، وفي يوم رأى الصحابة غبار عظيم يغطي المدينة، فسألوا: ما هذا؟ فقيل: إنه الطفيل، عاد ومعه دوس أسلمت كلها.

استطيع ان تفعل هذا... مع اصحابك، مع جيرانك مع كل من تقابلهم؟

ولتعلم انك عندما تكون مع الله، فإن حلاوة الدنيا ستزيد، وستشعر بحلاوة الدنيا وتستشعر حلاوة الآخرة.

الأمر ببناء الفلك (السفينة)

قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 37]، الفلك؟ هل تدري ما

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 6397)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 243).

معنى هذا الكلام؟ إنهم كانوا في صحراء قاحلة، ليس فيها شجر ولا شيء، فمعنى هذا الكلام: ازرع من الأول يا نوح.

سنزرع الأرض أنا والثمانين من حولي، وليس أي بذور، نريد أغصاناً قوية تحملنا على الفلك، هذا طوفان يا إخوتي.

فلك سيُحمل فيه الثمانون رجل ونوح ومن جميع الدواب: ذكر وأنثى، هل أنتم متخيلون هذا الموقف؟ فبعد الطوفان سيعمر الكون بهذه الكائنات من جديد.

أتعرف كم استغرق هذا الأمر؟ مئة عام جديدة. وهل كانوا يعرفون الفلك حينها؟ لا، بل كان هذا اختراع جديد من نوعه، الدليل أن الله أخذ يصف لنا هذا الفلك بجميع تفاصيله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: 13]، ألواح مربوطة بمسامير وعُقد و.. و.. كل هذا؟

لماذا كل هذا العناء ونحن نعلم أن الله قادر على أن يهلك الكافرين بثانية؟ من أجل أن يربي المؤمنين ويزرع في نفوسهم المواظبة على الكد والعمل والدعوة إلى الله.

فالمصحبة التي كان والدها ينهيانها عن الصحاب، كان الله يختبر ايمانها، والزوجة التي تصبر على أذى زوجها، الله يختبر ايمانها.

فهؤلاء الثمانون هم المسؤولون عن الأرض بعد الطوفان، تخيل صحراء، وفلك، فمن أين الماء؟ من عند الله القادر على كل شيء، سمعاً وطاعة يا نوح، ويعملون في كدٍّ ونشاط، وينجح أولئك في الاختبار.

ليس المعنى أن أكون متديناً وفاشلاً في الحياة، سيدنا نوح عليه السلام صبر على الدعوة وكان مخترعاً وهكذا ينبغي أن نكون، ولكننا للأسف ما زلنا ننتظر اكتشافات واختراعات الغرب ونحن ننظر ونستهلك فقط، يا إخوتي كونوا أمة منتجة، أرجوكم اعرفوا هدفكم في الحياة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وسيدنا نوح كان أعلم من قومه إذ عرف قاعدة علمية وهي أن الخشب يطوف فوق الماء، وسيدنا محمد ﷺ أول كلمة نزلت عليه كانت: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: 1]، فأين نحن من هذا العلم؟

قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، يشعرك بأن الله معك فعلًا، ناظر إليك، ومؤيّدك، وما دام الله مؤيدك، فلا تخشى شيئاً إلا الله، من أجل ذلك أقول لكم: تذللوا لله ﷻ.

بعد ذلك يقول: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، لماذا كان هذا الحوار؟ تخيل تسعمئة وخمسون سنة من العذاب، ولم يزل نوح يطلب الرحمة لهم وإعطاءهم فرصة أخيرة.

كما حصل مع النبي ﷺ حينما حفروا له حفرة في الأرض في غزوة أحد، فوقع النبي في الحفرة حتى ارتطم وجهه بصخرة وسقطت الرباعيتان منه، وأتى أحدهم وضرب النبي ﷺ بسيفه على الخوذة فدخل من حديد الخوذة في وجه النبي، فحاول أبو بكر أن يخرجها فلم يستطع، ونجح أبو عبيدة بإخراجها وما إن خرجت حتى شُجّ دم النبيّ ﷺ من وجهه الكريم، فصبَّ علي رضي الله عنه الماء على وجه النبي وزاد الدم غزارة، فرفع الرسول ﷺ يديه الشريفتين إلى السماء حتى ظنوا أنه سيدعو عليهم، فقال: «**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

(1) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 2/ 298).

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: 38]، تخيل كل هذه السنين سخرية واستهزاء، ما هذا يا نوح؟ سفينة وأين تجري بها؟ هنا ستنقلب هذه الصحراء إلى مياه، تخيل السخرية وقتها! ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: 39]، فهل لأجل أن الأمة تعبت اليوم، ثقتنا بالله تهتز؟ فلمَ لا تكن ثقتنا بالله كثقة نوح عليه السلام به؟

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: 51]، اعمل واجتهد وتذلل لله تعالى فنحن منصورون بإذن الله تعالى، سفينة في صحراء؟ لماذا؟ من أجل الثقة بالله ﷻ.

يا أخي، تخيل سيدنا نوح سيأتي يوم القيامة ويكذبه قومه، فيقول الله ﷻ: «من يشهد لك يا نوح؟»، فيقول: أمة محمد، تخيل.. ونحن لا نملك ربع الثقة التي كانت مع أصحابه الثمانين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 55]، ويقول الرسول ﷺ: **«زوى الله لي الأرض فرأيت أن مُلك أمتي سيبلغ ما زوى لي الله من الأرض»**[1].

يا أختي النصر سهيا، لكن ابنوا السفينة، اصبروا جدًّا، اعملوا لله، والله لن يضيعنا أبداً ما دمنا له طائعين.

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 7187)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 4252)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2176)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 3952).

إصرار سيدنا نوح على إصلاح الأرض:

إخواني قصة سيدنا نوح هي قصة الإصرار على إصلاح الأرض؛ لأن أول سؤال نُسْأله يوم القيامة هو: هل أصلحتم في هذه الأرض جميعاً؟

وقصة نوح هي قصتنا كلنا فنحن لم نُخلق في هذه الدنيا للأكل والشرب فقط، وإنما خلقنا حتى نصلح في هذه الأرض.

ان كل قصص الأنبياء تدور حول نفس المعنى وهو معنى الإصرار على اصلاح الأرض.

وإصلاح الأرض لا يكون فقط بالتدين والعبادة؛ بل هو علم وهندسة وزراعة وتكنولوجيا، ومع كل هؤلاء الاستقامة بالله، وإنها أيضاً قصة عبادة وصيام وصلاة ودعاء وتذلل إلى الله لكي يساعدنا على إصلاح هذه الأرض، فمن أجل ذلك كانت دعوة سيدنا نوح تسعمئة وخمسون عاماً من الكفاح والصبر والتضحية والجهد والشجاعة والإيمان بالله وحده.

لم يفكر سيدنا نوح بالنتائج بل كان مصراً على تنفيذ أوامر الله، كان صابراً ويعرف دوره في الحياة، كل هذه المدة وكل تلك السنين قضاها سيدنا نوح في كفاح ودعوة إلى الله سراً وجهراً ولم ييأس ولم يقنط.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أين نحن من هذا الإصرار؟ إنه ليس دور العلماء وشيوخ الأزهر وعلماء الدين فقط؛ بل درونا جميعاً رجالاً ونساءً، على قدر استطاعتك، قال تعالى:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36].

سبق وقلنا: لم يؤمن مع سيدنا نوح إلا ثمانون رجلاً فقط، أي: أنه طيلة دعوته لم يؤمن معه غير هؤلاء الثمانين شخصاً ولن يزيدوا... ومن بعدهم حدث الإهلاك والطوفان.

صناعة السفينة

عندما أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا نوح بأن يقوم باختراع اسمه: «سفينة» أوحى إليه بكيفية صناعتها، وأمره بزراعة الشجر، وهنا بدأ دور سيدنا نوح وأصحابه بزراعة الأشجار، وبعد مدة أثمر الشجر فطلب من الصناعيين أن يصنعوا من هذا الشجر ألواحاً كبيرة، وبدأ يعلمهم كيف تتم صناعة السفينة كما أوحى الله له بعد أن قام هو بتصميمها.

سيدنا نوح ليس مجرد نبي؛ بل هو تاريخ نجاح في الحياة، ونحن في هذه الحياة بحاجة أيضاً إلى الاقتصادي الناجح والرياضي الناجح والمزارع الناجح.

فصناعة الفلك استمرت حوالي مئة عام، فكانت تلك السنين اختبار للمؤمن وصدقه وإصراره على الطاعة، مئة عام وهو يعمل على هذه السفينة، مئة عام وهو يتقرب إلى الله أكثر فأكثر، مئة عام وهو يأخذ بأيدي الناس ليؤمنوا بالله، مئة عام وتكذيب الناس يزيد، مئة عام والناس تستهزىء به إلى أن أثمر الشجر وتم تقطيعه، وصُنِع منه الألواح، والكافرون ينظرون إلى السفينة إلى أن تم دق آخر

مسمار فيها، ويخاطب سيدنا نوح الله ﷻ بأنه أكمل عمله كما أمره.

وهنا ينظر المؤمنون إلى الكفار وهم فرحون بما صنعوا، لقد حان الوقت ليهلكهم الله، سينجي الله المؤمنين، ويهلك الكافرين بشر أعمالهم.

فوران التنور

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، لقد أعطى الله ﷻ علامة لسيدنا نوح لموعد إهلاك الكفار ونجاته هو ومن آمن معه، وهذه العلامة هي فوران التنور، أي: الفرن الذي سيخرج منه الماء وتفيض الأنهار، وتغرق الصحراء بالمياه ويبدأ الطوفان، وسيهلك كل شيء إلا ذلك الاختراع، أي: السفينة التي صنعها سيدنا نوح عليه السلام مع المؤمنين.

كان الله قادراً على أن يهلك الكافرين ويرسل عليهم الطوفان قبل تسعمئة وخمسين عاماً، ولكنه لم يفعل، وليس هذا من أجل الكفار؛ بل من أجل المؤمنين؛ لأنه أراد أن يختبر الصابرين والصادقين في إيمانهم، وإصرارهم على العمل، فبتلك الصفات والتميز سيدخلهم الله الجنة وينجيهم من الطوفان.

التمايز هو الذي سيدخلك الجنة ويرفعك الله في الفردوس الأعلى، أما الحسرة والندم فلن تدخلك إلا إلى النار، ولن تنفعك يوم القيامة.

لماذا لم يحدد الله موعداً معيناً لسيدنا نوح، لماذا لم يحدد له

ذلك اليوم الذي سيهلك فيه الكفار بأن يقول له مثلاً بعد شهرين سيهلكهم، كما فعل مع سيدنا لوط عليه السلام عندما قال له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81]، لماذا هي علامة وليس موعداً محدداً؟ لقد أراد الله أن يعرف كيف ستكون علاقة سيدنا نوح مع المؤمنين، وعلاقة المؤمنين مع بعضهم البعض، فمن الممكن أن ييأس بعضهم، أو يذهب لينتظر موعد الطوفان ولا يقوم بأي عمل، ولا يرى بعضهم البعض طيلة تلك المدة حتى إذا جاء الموعد ـ أي: الشهرين ـ أسرعوا بالذهاب إلى السفينة.

إن علاقتك أيها المسلم هي أن تخرج من هذه الدنيا بصديق صالح وإصلاح في هذه الأرض عند ذلك يكون الفوز بالجنة.

وهذا يعني: إن أردنا أن ننجح في الحياة وندخل الجنة علينا اختيار الأصدقاء الصالحين الذين يأخذون بأيدينا ونأخذ بأيديهم لإصلاح هذه الأرض ومَن عليها، ودون ذلك سيكون الخسران ويكون الطوفان.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1 ـ 3]، ويقول الإمام الشافعي: لو لم ينزل من القرآن إلا هذه الآية لكفت.

أخي المسلم عليك أن تختار الصحبة الصالحة، عليك

أن تضالط الناس جميعاً دون النظر الى المستوى الاجتماعي لكل واحد... ولكن عليك أن تختار الصالحين منهم، هؤلاء الذين يصطحبونك معهم لقراءة القرآن والذين تحضر معهم دروس الوعظ والإرشاد.

قل لي من هم أصدقاؤك أقل لك هل ستنجو أم لا؟ ليس المهم عمر ذلك الصديق بل المهم هل هو صالح أم لا.

كان الرسول ﷺ يحتاج إلى صحبة وإلى أصدقاء صالحين في هذه الدنيا، وقد اختار منهم من سيعينه في هذه الدعوة.

يقول الله ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28]، هل تريد أن تقدم هدية للإسلام؟ اختر صحبة صالحة وخذ بيده إلى الخير، ابحث عن شخص بحاجة إليك وأصلحه وساعده، وهنا أقول لك بأنك ستنجو بإذن الله من النار ومن الغرق ومن الطوفان.

قال سيدنا موسى عليه السلام عندما ذهب يدعو فرعون وأهل مصر: ﴿وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ [طه: 29 ـ 31]، أي: يقول لك الله تعالى: إني لن أُدخل الجنة إلا مجموعات وأفواج مع بعضهم البعض، فحاول أن تختار مجموعة صالحة حتى تدخل معهم الجنة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، وبدأ المؤمنون بشبك أيديهم ببعضهم البعض حتى ينجوا من الطوفان.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: 73]، ثم يقول الله لهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: 27]، ويعني هذا: أن يا نوح اجمع من كل الخلائق زوجين اثنين، أي: مثلًا اجمع دجاجتين وديكين وبقرتين وثورين، أي: من الذكر والأنثى؛ لأن بهم سيبدأ خلق جديد وعالم جديد.

فكانت أول علامة أن الله سبحانه وتعالى ساق كل تلك المخلوقات لوحدها إلى السفينة فهي ستكون مأمورة من الله بالذهاب.

فالأرض ستغرق ويموت مَنْ عليها إلا المخلوقات التي أمرها الله أن تركب السفينة؛ فالحياة الجديدة ستبدأ من هذه المخلوقات التي آمنت بالله.

فتخيل كم كان كبر السفينة ومساحتها وحجمها، كل من آمن مع نوح ركبها، ومع كل تلك المخلوقات ستكون البشرية الجديدة والحياة الجديدة والأرض جديدة، وستكون أدوات الحياة.

إصلاح الأهل أولاً

من أصعب الأمور في حياتك هو أن تصلح من حولك من الأصدقاء وغيرهم وتترك أهلك، أي: عائلتك من والديك وإخوتك، وعليك أن تحرص على أهلك أكثر من أي شيء في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: 7]، أي: أن الكل سيركب في السفينة من المؤمنين إلا من سبق عليه القول وهي امرأته وابنه؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]، الخيانة هنا ليست خيانة عرض؛ بل هم لم يؤمنوا أو لأنهم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر، الثمانون مؤمناً ثبتوا على الإيمان إلا امرأته، وهذا هو الابتلاء العظيم، لأن امرأة نوح لم تتحمل الاستهزاء وصعوبة الموقف، والبعد عن مظاهر الحياة، ولم تصبر فلم تركب السفينة وتنجو من الغرق.

فنحن أحياناً نعرف أين النجاة، وأين الحق، ولكننا لا نريد الالتزام؛ لأن زخرف ومظاهر الدنيا تأخذنا إلى الضلال.

يقول الرسول ﷺ: «**دخلت الجنة فرأيت فقراء المسلمين وأطفال المسلمين، فقلت: أين الأغنياء؟ فقيل لي: هم على أبواب الجنة يحاسبون**»، سوف يتأخرون؛ لأن حسابهم أطول؛ لأنهم يحاسبون على أموالهم، «**ثم قلت: أين النساء؟! فقيل لي: أما النساء فألهاهنّ الأحمران**»[1]، والأحمران هما الذهب والحرير، وسميا بذلك؛ لأنهما يبرقان العيون، ولكن ليس ذلك طبيعة كل النساء.

هناك نساء يبكين من خشية الله وإيمانهن يتعلم منه الرجال، وهناك نساء تشغلها الدنيا ولا فائدة منهن.

(1) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 3/ 209).

يقول الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: 11]، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ [التحريم: 12]، إن غرائز الإنسان من الشهوات وحب الجاه والسلطة والمال هي من أسباب ضياعه في الدنيا وهلاكه في الآخرة.

وامرأة فرعون لم تُرِدْ هذا السلطان، وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11]، أما مريم رمز العفة فقد صبرت واتقت حتى أكرمت، فهما مثال لنا لنتعلم منهما في حياتنا.

نصر نوح والمؤمنين

استمر نوح يدعو ربه تسع مائة وخمسين عاماً وصنع السفينة كما أمره الله، وأصلح في الأرض وأخذ بأيدي الناس حتى آمن منهم ثمانون شخصاً، وبدأ التنور بالفوران ودخلوا وركبوا في السفينة ما عدا زوجته وابنه، وبدأت الصحراء تختفي وفاض الماء من كل جهة وبدأ الكفار ينظرون إلى السفينة وهي تتمايل في الماء، فعرفوا أنه الحق، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: 10].

ودعا نوح ربه إني مغلوب فأرجو أن تنصرني، فهو كان خائفاً من الكفار أن يميلوا عليه، كما كان خائفاً من الماء.

ان هذه الآية من أجمل الآيات التي تدعو بها ربك ان اردت ان تدعو الى نصرة المسلمين واخوانك في فلسطين او في مكان آخر.

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ

عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: 11 ـ 13]، وتسير السفينة بأعيننا، أي: بأمان وطمأنينة، لقد ضحى نوح طيلة التسعمئة وخمسين عاماً وصبر من أجل أن ينتصر هذا الدين، ففتحت له أبواب السماء واستجيبت له دعوته.

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: 79]، سنبعث سلاماً لكل العالم، أي: سلام للعالمين حتى تعرف مكانتك عندنا يا نوح.

لو أحبك الله بكرمك ولو أبغضك ستضيع، لو أحب الله عبده سيعطيه ويكرمه ويستجيب لدعوته.

ان حب الله للمصلحين اضعاف اضعاف حبه للصالحين؛ لأن المصلحين عملوا على اصلاح الأرض واصلاح عباده، أما الصالحين فعبدوه فقط.

فمثلاً هناك ملك طلب من عبدين عنده أن يبرهنا عن مدى محبتهما لملكهما فقال لهما: إن كنتما صادقين في محبتكما لي فابذلا جهداً واذهبا وعرّفوا عبادي عني.

أما الأول فقال له: سمعاً وطاعة، فذهب وأخذ يصلح عبيده، **أما الآخر** فقال له: اجعلني بقربك لأصلي في معبدك، وهذا الفرق بينهما، **فالأول**: دعا إلى إصلاح العبيد فكثر أحبابه، **والثاني**: ظل وحيداً بقرب سيده.

محبة الله للأنبياء

لقد أحب الله سيدنا نوح، وبعد أن استهزأ به قومه وضربوه

حتى أغشي عليه من شدة الضرب، نجاه الله من القوم وجعل ذريته من الصالحين.

وانظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام كيف أراد أن يصلح قومه ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد، فوضعوه في النار فجعل الله النار عليه باردة، وقال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69]، وكان مخلداً في التاريخ.

ولقد أحب الله سيدنا إسماعيل أيضاً ونجاه، وذلك عندما أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه فأطاعه وأخذ السكين ووضعها على رقبة إسماعيل، فأنزل الله مكان إسماعيل كبشاً ليُذبح بدلاً عنه، ولذلك أصبحت هذه المناسبة يوم عيد يحتفل به المسلمون كل عام وهو عيد الأضحى، وجعلها مناسبة للذبح في ذلك المكان.

وأحب عبده يعقوب عليه السلام عندما أخذ منه بصره وابنه وحبيبه يوسف، ولكن بعد مدة أعاد الله له بصره وابنه وأصبح ملكاً يقود المنطقة ويحكم مصر.

وأحب موسى عليه السلام بعد أن هاجر من بلده وترك مصر وذهب لكي يرعى الغنم لمدة عشر سنوات، فجعله يعود إلى بلده، أي: إلى مصر وشق له البحر نصفين وقال له: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ [الأعراف: 144]، وأحب عيسى عليه السلام وأمه مريم، فاتهمت أمه بحملها فيه، ولكن بعد أن وضعته أصبحت سيدة نساء العالمين ورمز العفة، وأصبح عيسى معجزة الله في الأرض.

أحب محمداً ﷺ وكان يقال له: اليتيم، وأُخرج من مدينته

التي أحبها وهي مكة سنين طويلة وبعد أن ضربه قومه وأدموه قال الرسول ﷺ: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي**»[1].

فأعاده الله إلى تلك المدينة التي أُهِينَ فيها معززاً مكرماً فاتحاً ومنتصراً، ورافعاً راية لا إله إلا الله، وعفا عن قومه وقال لهم: «**أنتم الطلقاء**»[2]، ولكن بعد أن ضُرب النبي أرسل الله له فتًى اسمه: عدّاس قبَّل قدميه، ويبعثه الله برحلة وهي رحلة الإسراء والمعراج ليريه مقامه في السماء وليوصله إلى مكان لم يصل إليه أحد من قبله أو بعده من العالمين، وليقول له: هذا مكانك عندي في الآخرة.

وعقب كل هذه الابتلاءات من الله للأنبياء وصبرهم عليها، اجتباهم ورفعهم إلى أعلى المراتب.

أحب الله ﷻ السيدة خديجة لذلك نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يقول له: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

إكرام المؤمن

أخي المؤمن، لا تعتقد أن المهانة والذل والصبر التي عاشها وتحملها سيدنا نوح مع قومه ذهبت هدراً طيلة تسعمئة وخمسين عاماً؛

(1) أخرجه **البغوي** في «السنة» (الحديث: 6/ 167).

(2) ذكره **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 118).

بل إن الله أكرمهم؛ لأنهم أصلحوا، وذلك كله لله.

والله يدافع عن المؤمنين إذا عملوا من أجل مرضاته وهاجروا في سبيله وأصلحوا في الأرض، فحين يأتي يوم القيامة ويسأل كل واحد: يا فلان، يا فلانة، إني راضٍ عنك فهل أنت راضٍ عني؟ تخجل حينها من الله، ويقول لك: عرفت لماذا خلقتك؟ فتمنّ تُعطَ.

لقد حزن النبي ﷺ كثيراً عندما تأخر نزول الوحي عليه فقال له ربه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، فماذا فعلت أنت حتى يحبك الله...؟ هل جاهدت؟ هل أصلحت وأعطيت؟ هل ساعدت أحداً للوصول إلى طريق الخير والإصلاح؟ عليك أن تصبر وتتحمل الصعاب حتى تستحق حب الله.

نتيجة الصبر

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: 41، 42].

لقد حلّ اليوم الذي وعد الله به المؤمنون طوال كل تلك السنين الطوال التسعمئة وخمسين عاماً وقال لهم:

اركبوا السفينة التي صنعتموها بأنفسكم واستعدوا للرحيل عن هذه الأرض، وعن هؤلاء القوم الظالمين، كانت السفينة من ألواح ودسر، أما الآن فهي سفينة عطاء ونجاح وتطور وقدرة على القيادة... حتى لو استهزأ الناس بها.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود: 44]، فأمر الله الأرض أن تبلع الماء وأمر السماء أن تقلع، ومن يأمر بهذا غير الله؟! وهؤلاء يطيعوا أوامر الله: أمر الماء أن تفيض واستوت السفينة على جبل الجودي بعد أن جفَّت الأرض، وأمر الماء أن تنزل عن الجبل فالله قادر على كل شيء، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هنا أصبح الظالمون بعيدين وأُغرقوا في الطوفان وكان هذا جزاء معصيتهم واستهزائهم بسيدنا نوح وقومه، ومعصيتهم لله ﷻ.

لا إصلاح بدون مجتمع متماسك

لا يوجد إصلاح ولا نهضة بدون أسرة قوية ومترابطة بعضها ببعض، فعندما تتفكك الأسرة يبدأ المجتمع بالانهيار.

ولا يوجد هناك إصلاح بدون مجتمع متماسك، فالغرب متفوق علينا بأشياء كثيرة... كنا نقول دائماً: نحن متفوقون عليه بالأسرة وبالعائلة، لكن بعد عشر سنوات بدأت الأسرة والعائلة تتفكك وتنهار.

أسباب الانهيار:

الحب هو أهم الأسباب، لأن قيام عائلة أو أي زواج يجب أن يكون مبنيًا على الحب والرحمة والتفاهم والثقة.

يجب على الشاب والفتاة أن يختارا الشريك الصالح الطائع

لله، أما لو كان العكس فكيف سيكون هذا المجتمع بدون أساس؟! هو حتماً سينهار.

ونحن نرى في أيامنا هذه كيف أن العلاقات بين الأزواج يملؤها الحقد والكراهية والخيانة والغيرة، والأنانية واللامبالاة لأي شيء أو لأية مسؤولية.

فالمشاكل الزوجية تكبر وتتعقد والرحمة قليلة وعلاقة الأولاد بالآباء ضعيفة، ولا يوجد بينهم غير الرابط المادي.

أصبح دور الوالد يقتصر على كسب المال وتأمين كل ما يحتاجه أولاده من الأشياء المادية، أما الأم فكل واجباتها هو عمل المنزل وتحضير الطعام والتسوق، أصبح لكل منهم غرفته الخاصّة وكأن كل واحد يعيش في عالمه الخاص به، لا يجتمعون إلا على عشاء أو مناسبة ضرورية جداً.

لا يوجد عائلة كبيرة في الأغلب إلا وفيها شاب أو فتاة يتعاطون المخدرات، والوالدين آخر من يعلم والأصدقاء أول من يعلم، فأصبح تأثير الأصدقاء على الأولاد أكبر وأكثر من الوالدين.

أريد أن أرسم صورة جميلة لعائلة

الأب والأم كالأصدقاء وأفراد الأسرة جميعهم أصدقاء، وكلنا يعمل من أجل بناء نهضة.

نريد عودة العائلة المترابطة التي يتناقش أفرادها مع

بعضهم من أجل حل مشاكلهم.

إن أحد أسباب التفكك في مجتمعنا هو العزلة، فكل واحد منا يعيش بمفرده مع تجاربه، حبذا لو يعامل كل والد ابنه كالصديق يحدثه عن أيام شبابه مثلاً وعن الأخطاء التي وقع فيها، والمشاكل التي واجهها وكيف استطاع حلها، وتسعى كل أم لمعرفة ما تعانيه ابنتها من مشاكل وتعاملها كصديقتها، بأن تناقشها في الأمور التي حدثت معها في مثل سنها، وفي الأمور والمشاكل التي تواجه شباب وفتيات هذا العصر، وعندها فقط نستطيع أن نبني جسراً من الثقة والألفة بيننا وبين أولادنا حتى نكون على معرفة بجميع مشاكلهم ومساعدتهم على حلها، وحتى قبل الوقوع بأية مشكلة نساعدهم على مواجهتها، وهنا فقط نستطيع أن نقول بأن أسرتنا هي تلك الأسرة المتماسكة المترابطة التي تستطيع إنقاذ مجتمعنا من الانهيار.

انظر مثلاً إلى سيدنا يعقوب عليه السلام كان يعامل ولده يوسف ـ منذ الصغر حتى بلغ اثنا عشر عاماً ـ معاملة الصديق لصديقه، فلما ذهب يوسف إلى والده وقص عليه الحلم الذي رآه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]، ماذا كان رد سيدنا يعقوب عليه السلام؟ قال: لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدون لك، إن الشيطان سيوقع بينكم.

وانظر أيضاً إلى سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل والعلاقة بينهما فقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، فما

كان رد إسماعيل على أبيه؟ قال له: انظر ماذا ترى... أراد إبراهيم أن يشاركه ابنه في القرار، ولو أراد الله أن يفعل إبراهيم ذلك دون مراجعة ولده لفعل، ولكن إبراهيم صادق ابنه منذ الصغر وعندما بلغ الثانية عشر، أصبح رجلاً ناضجاً، وكل هذه الأحداث تحمل في طياتها معانٍ سامية ونبراساً نستضيء به في حياتنا.

علاقة الأب بولده

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود: 42]، علاقة سيدنا يعقوب بيوسف كانت علاقة حميمة، وكذلك كانت علاقة إبراهيم بابنه إسماعيل.

ولكن العلاقة بين سيدنا نوح وابنه كانت غير صحيحة، فابن سيدنا نوح يعيش في معزل ـ أي: منغلق على نفسه ـ لا يريد أن يسمع ما يقول له والده، لا يريد أن يكون هناك صداقة مع والده، وعندما بدأ موعد الطوفان قال له: يا بني، اركب معنا، لو كان ولداً مطيعاً لأطاع الله وأطاع والده، ولنجا من الغرق والموت والهلاك. قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: 43] أي: أستطيع أن أتغلب على مشاكلي وأذهب إلى هذا الجبل ليحميني من الهلاك والغرق، فرد عليه سيدنا نوح عليه السلام قائلًا له: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43].

في هذا الزمن وهذا العصر لا عاصم اليوم من الهلاك والتفكك إلا صحبة صالحة وأسرة متماسكة، إذا كان والدك غير متفرغ

فاذهب أنت وكلّمه وناقشه في مشاكلك وفي شؤون حياتك.

قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

لقد رأى سيدنا نوح ابنه وهو يغرق أمامه، ولم يستطع أن يفعل له شيئاً، يا شباب، ارحموا آباءكم فلو سمع ابن نوح من والده وأطاعه لما غرق، وكم كانت حرقة نوح على ابنه وهو يغرق وسط الطوفان، وحال بينهما الموج.

يا شباب، لا تغلقوا على أنفسكم لأن حالة الموج تحول كل يوم وتحصل في كل منزل كمثل الفتاة تتزوج زواجاً عرفياً.

يا أمهات ويا آباء أين دوركم في هذه الحياة؟ لكل منكم دور غير كسب المال وتدبير شؤون المنزل، هناك دور أكبر ألا وهو التقرب من أولادكم والعمل على حل ومعالجة مشاكلهم، وأن تأمروهم بعبادة الله والتمسك بطاعته.

كان الرسول ﷺ يذهب إلى بيوت الصحابة ويطلب منهم أن يجمعوا أولادهم حتى يدعوا لهم، وقد أراد النبي بذلك اجتماع العائلة على طاعة الله ومرضاته حتى تكون عائلة متماسكة.

وهنا سأروي لكم قصة حدثت معي وأنا في سن العشرين، كنت بزيارة رجل أعرفه من الأزهر في أحد البلاد الغربية، فطلب مني أن أذهب معه لشراء هدية لزوجته، وكان مهتماً كثيراً في اختيار نوعية الهدية وحريصاً على أن تنال إعجابها مع العلم أنه في عمر

الستين، وهي في عمر الخمسين، وبعد عدة سنوات عاد إلى مصر وقمت بزيارته فاستقبلني، وبعد انتظار دام نصف ساعة عاد إلي فاعتذر مني وقال: إن هذا اليوم كان يوم قراءة القرآن لجميع العائلة!! فهل عرفت من أين أتت هذه العائلة بالمحبة والتماسك طوال تلك السنين.

صداقة والدِيْك

يا شباب، يقول الرسول ﷺ: «**احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفىء الله نورك**»[1]، وهذا يعني: أن حياءك ووجهك وقلبك سيظلم فحافظ على علاقتك به، وحافظ على الحوار معه وإلا سيطفىء الله نورك فتُظلم.

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «**إن من العباد عباد لا يكلمهم الله**»، فقيل له: ومن هم يا رسول الله؟ فقال: «**المتبرىء من والديه**»[2].

المتبرىء هو الذي رمى بوالديه أو أحدهما في دار العجزة أو الذي يخجل منهما أمام الناس أو يخجل أن يخرج معهما إلى أي مكان، وذلك خوفاً من أن يقال عنه لا زال صغيراً.

ولا تترك الإعلام الغربي يحرّضك على معصية والديك، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]، سأل صحابي الرسول ﷺ: من أحق الناس بحسن صحبتي؟، فقال له:

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 3).

(2) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 440).

«أمك»، قال: ثم من؟ قال: فأعادها عليه ثلاث مرات ثم قال له: «ثم أبوك»[1].

لو عادت العلاقة الحميمة بين الأب والأم والأولاد بشّرنا بالخير

زار الرسول ﷺ قبر أمه فبكى بكاءً شديداً وأبكى من حوله، صاحب والديك وإلا حال بينكما الغرق، أي: الموت.

فعندما يضيع الشاب أو الفتاة فلا ينفعه الشفاعة والغرق، عندها قال نوح: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]، فالرد هو أن ابني عصاني ولم يسمع مني ولم يطيعني، فقال له الله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 46]، لم يقل إنه ولد غير صالح، بل إنه كله غير صالح، فهو لم يطع ربه ولم يطع والده فهذه رسالة إلى الآباء والأبناء والزوجات؛ لأنها هي التي ستصلح.

لم يذكر في القرآن الكريم أن سيدنا نوح طلّق زوجته، لأنها كانت امرأة ضعيفة فلم تستطع أن تقاوم شهوات الدنيا ولم تطع زوجها وغرقت مع المغرقين.

أسباب عدم الصحبة

من أسباب عدم الصحبة في أسرنا «الخجل». خجل الولد من والده ليطلعه على أموره ومشاكله أو العكس، وخجل الزوجة من

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 5971)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6447)، وأخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2706).

زوجها عند عرضها لمشكلة ما خوفاً منها أن يرمي عليها المسؤولية ويتنصّل منها بحجّة العمل أو على العكس أيضاً.

أيها الشباب... اختاروا الزوجة التي تساعدكم على دينكم في هذه الحياة الصعبة، وكذلك الفتيات عليكنّ اختيار الرجل أو الشاب التقي الصالح المطيع لله ولوالديه.

نهاية قصة نوح

نريد أن ننهض ببلادنا وهذا الأمر لا يتم إلا بهاتين الصفتين:

1 ـ الصبر.

2 ـ التضحية.

ختام قصة نوح: صبر جميل وشديد وتضحية كبيرة، إن آخر آية في القصة ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في هذا العصر والزمن أصبحت هذه الصفة ضعيفة عندنا فنحن نسأم بسرعة ولا نستطيع التحمل، ونستعجل الأمور دائماً ونريد لأمورنا أن تتحقق بسرعة، ولكن اعلم أن كل شيء لا يحدث إلا في أوانه، فالله خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام، والطفل لا يولد إلا بعد تسعة أشهر، والشجر لا ينبت إلا في وقته، فالشجاعة وراءها الصبر، كما أن كلّ الصفات العظيمة وراءها الصبر.

وكل الصفات السيئة وراءها عدم الصبر، فالسرقة لا تحدث إلا عند عدم الصبر على الرزق الحلال، والزنا لا يحدث إلا عند عدم الصبر على الزواج في ظل الشرع والقانون، ولا يمكن أن يحصل نقلة أو تقدم أو قيمة للمسلمين بدون هذه الصفة.

والصبر: صبر على الطاعات وصبر على المعاصي وصبر على انتصار المسلمين، فلا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، هيّا لنصنع مجتمعاً متماسكاً قوياً حتى يعيد الحياة الى هذا الدين.

المعنى الأساسي

قديماً كانت هذه الأمة تتمتع بهذه الصفات، لذلك كانت ذو عزة وكرامة ومجد وتاريخ كبير، وهيبة وقوة، وكان لها حضارة كبيرة وعظيمة.

فلما ذهبت تلك الصفات وخاصة في هذا الجيل الحالي، أصبحنا أمة ضعيفة ويائسة ومحبطة ومستسلمة وهزيلة، ومقطعة الأوصال، وأخيراً محتلة.

فقصة سيدنا نوح كانت قائمة على صفتي: الصبر والتضحية. فبهما نصر الله نوحاً عليه السلام ونجّاه من الغرق، وهذه القصة كانت هي المفتاح الذي سنستعمله في فتح كل أبواب الحياة، وذلك بالسير على منهاجهم وخططهم.

الفكرة المركزية

يقول علماء النفس: إن الجنس البشري في هذه الدنيا لديه فكرة مركزية في عقله، وهي التي تتحكم به وتحرك كل إمكانياته، فمثلاً فكرة المال أو العمل أو السلطة أو العائلة، كل هذه الأفكار ليست محرمة بل هي أهم شيء في حياتنا.

فقد تجد عند بعض الناس أن العمل هو أهم شيء في حياته، وعند البعض الآخر السلطة والمركز أهم شيء حتى من والديه، والبعض الآخر يهمه مظهره أمام الناس.. وهكذا.

سأطرح عليك سؤالاً: ما هي مركزيتك؟ إذا أردت أن تعرف أقول لك:

اليوم عليك أن تقرر وتكون صادقاً، وتعرف ماذا تريد، وأن تكون على استعداد بأن تضحي بأي شيء لأجله.

لذلك يضعنا الله ﷻ في اختبار بين شيئين وهو أعلم بما يجول في خواطرنا، فمثلًا: أنت أمام اختيار إما أموالك أو عائلتك، فعندما تختار عائلتك تدرك أنها هي مركزيتك. أو أن تختار بين عائلتك أو عملك... فتختار عملك؛ لأن العائلة ليست مهمة بالنسبة لك فأنت ستضحي بكل شيء من أجل عملك.

إذن مركزيتك هنا العمل والمال والمنصب ولا أهمية للأب والأم والعائلة، وهذا الشخص مستعد لأن يسحق الناس من أجل أنانيته ونفسه فقط.

مركزيتك طاعة الله

هل تريد أن تضحي بكل شيء وتفوز يوم القيامة؟ لتكن مركزيتك طاعة الله ورضاه، وحبه والتذلل له، وإصلاح هذه الأرض وإصلاح الناس؟ إذن أنت ملزم أن تكون مركزيتك طاعة الله ﷻ لماذا؟ لأن القرآن الكريم الذي أنزله الله ﷻ، أمر بذلك...

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]، من ستكون مركزيته هذه الأشياء أو الأشخاص التي عددها الله ﷻ في هذه الآية؟ مع العلم أن الله تبارك وتعالى أمرنا أن نهتمّ بعائلتنا وأمرنا بأن نعمل لكسب رزقنا، ولكن لا أن يكونوا مركزيتنا في الحياة، بل الله ورسوله وجهاد في سبيله، وإصلاح في هذه الأرض، وإطعام اليتيم وتعليم القرآن وإصلاح الناس.

ويأتي يوم القيامة فيقف أمام الله تبارك وتعالى، ووراءه أهم شيء كان له في الدنيا: مركزيته.

يقول النبي ﷺ: «**تَعِسَ عبد الدرهم**»[1]، المركزية هنا مهمة وخطيرة، لأنها قضيّة مصير، هل أنت مستعد الآن أن تغيرها؟ عليك أن تختار إما أن تكون مركزيتك المال مثلاً وتعيش حياتك تعساً وتخسر آخرتك، وإما أن تختار أن تكون مركزيتك طاعة الله ورضاه وتعيش سعيداً وتفوز بالجنة.

تريد أن تُعدِّلْ مركزيتك؟ فابدأ منذ الآن؛ لأن يوم القيامة سيقف كل شخص وراء الشيء الذي هو الأهم في حياته وكان محور مركزيته، فمثلاً: يقف عبد الدرهم وراء ماله، ويقف عبد

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 2886)، و(الحديث: 6435)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 4135)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 159).

السلطة وراء كرسيه، وتقف الفتاة التي عبدت الأزياء والملابس وراء هذه الأشياء، أما الذي كانت مركزيته طاعة الله ورضاه فقط، فهو الوحيد الذي سيقف وربنا راضٍ عنه.

نجاح الفكرة

يقول علماء الدين والاجتماع والتاريخ وعلماء النفس: إن كل نهضة حدثت في تاريخ البشرية كان سببها الصبر والتضحية، الغرب نجحوا في حياتهم وتفوقوا؛ لأنهم وضعوا فكرتهم المركزية «المال» ولو على حساب العائلة (الأسرة) أو الدين ونجحوا؛ لأنهم ضحوا وصبروا لذلك وصلوا إلى تحقيق كل مخططاتهم.

فأنا أدعوكم لأن نُكَوِّن فكرتنا المركزية وأن نجعلها طاعة الله ورضاه، لنضعها أمام أعيننا، فهي لا تتعارض مع فكرة المال، أو الأسرة، وإن كنت ستضحي بالمال أو النفس فلن يزيد ذلك من مالك أو من عمرك.

يقول النبيّ ﷺ: **«إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها»**[1].

لماذا لا تكون فكرتك الأساسية هي طاعة الله ورضاه، لا تجعل الشيطان يوسوس لك ويغير فكرتك، عليك أن تكون واثقاً من نفسك.

(1) أخرجه البغوي في «السنة» (الحديث: 14/ 304).